آخِر أيام القُوط

بقيت بــلاد العرب آمنة مطمئنة لها عريــن، ولا يباح حماها، عندما كانت جيوش الإســكندر الأكبر تغير علــى الإمبراطوريات الشــرقية القديمة؛ فلزم سكان شبه الجزيرة العربية صحراءهم فى عزلــة وأنفة، لا يبعثون إلى الفاتح العظيم رســلا، ولا يقدمون إليه طاعة ولا خضوعًا، وعقد الإسكندر العزيمة على إذلال هؤلاء العرب المســتكبرين، وأخذ الأهبة لغزوهم ووطئهم تحت قدميه، وما كاد يهم بذلك حتى أدركته المنية[1]، فحالت دون أمنيته، وبقى العرب أعزاء لا يغلبون.

كان ذلك قبل السيد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة، والعرب من ذلك الحين وقبله أعزاء مستقلون بصحرائهم الواسعة، لا يخضعون لســطوة فاتح جبار، وقد مر بهم زهاء ألف ســنة فــى هذه العزلة الهادئــة التى قــل أن يكون لهــا مثيل بين بقــاع الأرض، وقامت من حولهم إمبراطوريات جديدة: فأنشــأ خلفاء الإســكندر المملكة الســورية، وكان بها السلاســدة (the Seleucids) وأبناء الأسرة المصرية من البطالســة. وتوج أغســطوس إمبراطورًا لرومة. وأصبح قسطنطين أول إمبراطور مســيحى لبيزنطة، وخضع حشود البربر

(١) مات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م.

لإمبراطورية القياصرة البعيدة الأطراف واندمجوا فيها، كل ذلك والعرب متحصنون بشبه جزيرتهم، لا يزعزع لهم أمن، ولا يطرقهم طارق، ولا يحاول غزوهم فاتح، وإذا دانت بعض مشارف بلادهم وثغورها بشيء من الطاعة أحيانًا لأكاسرة الفرس وقياصرة الروم، وجاست بعض الفرق الرومانية بين الحين والحين خلال بعض مفاوزها، فإن شيئًا من ذلك كان ضئيلا متقطعًا، لم يمس استقلال البلاد ولم ينل من عزتها.

وهكذا ربض العرب فى جزيرتهم لا تزعجهم صائحة، وطفِقوا وقد أحاطت بهم الممالك الضاربة الظامئة إلى الغزو والفتوح، وادعِين بصحرائهم، مستلئمين بشجاعتهم التى لا تقهر، وبقى لذلك تاريخ العرب مغمورا منذ أزمان بعيدة فى القدم إلى القرن السابع الميلادى، فلم يعرف عنهم إلا أن لهم وجودًا، وإلا أن أحدًا من الغزاة لم يحاول غزوهم، إلا قعدت به الوساوس وساوره خوف الهزيمة، ثم حدث فجاءة فى أخلاق العرب تطور جديد، فلم يعودوا يرغبون فى العزلة كما كانوا، بل انطلقوا يجابهون الدنيا، وأخذوا فى جد وحزم يحاولون غزو العالم.

نشأ هذا التطور من عزيمة رجل واحد هو محمد بن عبد الله، فإن هذا النبى العربى شرع فى طليعة القرن السابع ينشر الإسلام، فلقيت دعوته آذانًا واعية، وعظم تأثيرها فى قلوب العرب، فأثارت فى طبائعهم وأخلاقهم ثورة عنيفة شاملة، وكان ما يدعو إليه محمد

سـهلا حنيفًا، قريبًا إلى النفوس، يتفق مع شريعة اليهود التى كان لها أحبار بالجزيرة، وقد أبطل كثيرًا من الأحكام والعادات، وأضاف أحكامًا جديدة كان العرب فـى حاجة إليها، ودعا إلى الوحدانية، فكان ذلك فتحًا جديدًا بين قوم مردوا على عبادة الأوثان.

ويصعب علينا فى هذه الأيام أن ندرك التأثير الشديد الذى بعثه هذا الدين الهـادئ فى قلوب العرب؛ ولكننا نعرف أن هذا التطور الدينـى قد تم فعـلا، وأن للأنبياء الصادقين دائمًـا قوة غريبة فى اجتـذاب النفوس، ولقـد كان محمد حين دعا قومـه صادقًا، ولقد بلـغ دينه الذى يراه الدينَ الحق أمينًـا مثابرًا، ولقد كان فى الدين من السـمو، وفى النبى وأصحابه من الرغبة الحافزة فى نشـره ما أثار موجة ملكت على العرب شـعورهم، وأجج فى نفوسهم جذوة يسميها الناس اليوم بالتعصب الدينى.

وكان العرب قبل بعثة محمد أشتاتًا من شعوب وقبائل متطاحنة، تتنافس فى الشـجاعة الوحشـية، والكرم والبطولـة، وتعيش من الغـارات وانتهاب الغنائم، فحولهم النبى فـى طرفة عين إلى قوم مسـلمين، وملأ قلوبهم بحماسة الشـهداء، ووصل حبهم الفطرى للدنيا والمغانم بطموح نبيل هو تبليغ الدين إلى الناس كافة.

خضعـت جزيـرة العـرب كلها لمحمد قبـل أن يلاقـى ربه، وانتشرت القبائل التى وحد كلمتها فى الممالك المجاورة للجزيرة، وألقى أهلها لهم القياد دهشـين مشـدوهين، ثم اكتسحت جيوش

خلفائـه بلاد الفرس، ومصـر، وشمال إفريقية، حتـى بلغوا منه المكان المعروف بأعمـدة هرقل، وردد المؤذنون أذانهم من وراء نهر جيحون بآسيا الوسطى إلى شواطئ المحيط الأطلنطى.

وصدت الهجوم العربى بآسـيا الصغرى قوات إمبراطور الروم، ولم يتح للمسلمين أن ينالوا من هذه البلاد حظًا إلا فى القرن الخامس عشـر، حين بلغوا ما طال إليه تشوقهم من فتح القسطنطينية التى دكت حصونها شـجاعة الترك العثمانيين وشـدة مراسـهم، وفى النهاية المقابلة من بحر الروم، صد أحد قواد الروم تيار العرب إلى حين، فاتجه العرب الفاتحـون إلى ممالك شمالى إفريقية، وكبحوا جماح أمة البربر الشامسـة العنيدة بعد جهاد عنيف، وأخضعوها لسلطانهم، ولم يقف فى وجوههم إلا قلاع سبتة وحصونها، وكانت سـبتة كغيرها من بلاد جنوبى بحر الـروم، تحت حكم إمبراطور الروم، غير أنها لبعدها من القسـطنطينية كانت تتوجه إلى مملكة إسـبانيا بطلب المعونة، فهى تابعة للروم من حيث الحكم، مضافة فى الحقيقة إلى ملك طليطلـة لحمايتها والدفاع عنها، ولم يكن فى حكم الظن أن تكون معاوَنة إسـبانيا لها كافيـة لصد أمواج العرب الفاتحين، على أنه حدث فوق هذا أن كان هناك شقاق بين «يوليان» حاكم «سـبتة» و «لذريق» ملك إسـبانيا، ففتح هذا الشـقاق الباب واسعًا لدخول العرب، وذلل سبيل الفتح للغزاة.

كان يحكم إسبانيا فى ذلك الوقت القوط الغربيون، وهم قبيلة متوحشة كغيرها من القبائل التى اكتسحت ممالك الإمبراطورية الرومانية إبَّان ترنحها للسقوط، أما القوط الشرقيون فقد احتلوا إيطاليا، وتركوا أبناء عمومتهم من القوط الغربيين يأخذون مكان بعض القبائل الجرمانية الجافية، ويدقون أطناب حكمهم بإسبانيا فى القرن الخامس الميلادى.

وكانت إسبانيا عندما دخلها القوط منحلة العرا، غارقة فى ألوان من الترف الفاجر، والنعيم الذى يسلب الرجولة، وبمثل هذا العبث وذلك الفجور ذهبت ريح دولة الرومان قبلهم، فإن الرومان كغيرهم من رجال الحروب، حينما انتهوا من غزواتهم الكثيرة المتعاقبة بالنصر والغلب ورأوا الدنيا تحت أقدامهم، انصرفوا إلى الراحة بعد الجهد الشاق، والجهاد المضنى، وألقوا بأنفسهم فى أحضان النعيم، وناموا فى ظل ظليل من الغنى الواسع والأمن الشامل، فذهبت أخلاقهم، وماتت فيهم حمية آبائهم الشجعان البسل الذين كانوا يرضون بالكفاف، ويتركون آلة الحرث ليجردوا السيوف ماضية بتَّارة، إذا دعاهم أحد القياصرة لحماية بلادهم، أو لغزو قارة جديدة.

كانت الطبقة الغنية بإسبانيا فى عهد الرومان قد خلعت العذار لأنواع الترف والشهوات، حتى لكأنها لم تخلق إلا للطعام والشراب، واللهو والقمار، ولكل ما يثير النفس العابثة ويرضى

نزعاتها؛ وكانت الطبقة الدنيا تشمل العبيد وأحلاس الأرض الذين أخلدوا إلى زراعتها، حتى كأنهم قطعة منها لا يفارقونها حياتهم، فإذا انتقلت إلى مالك جديد، انتقلوا إليه معها.

وبين هاتين الطبقتين – طبقة الأثرياء، وطبقة العبيد والأحلاس – كانت الطبقة الوسطى من سكان المدن الأحرار تلاقى من سوء الحال وضنك العيش ما كان شـرًّا مما يلاقى العبيد وأشـد نكرًا، فعليهم كان يقع عـبء الإنفاق على الدولة، فهم الذيـن يؤدون الضرائب، ويقومـون بخدمة الدولة وما تتطلبه المـدن من الأعمال، وهم الذين يجمعون الأموال للأغنياء ليبعثروها فى لذائذهم. وبديهى أن دولة تصاب بهذا الفسـاد وذلك الضعف لـن تكون بها منة على صد فاتح بطاش شديد الشكيمة.

كان النبـلاء والأغنياء – وهم فى غمرة من النعيم ورفاغة العيش – لا يسمعون ما يلغط به الناس من اقتراب الأعداء، وكانت سيوفهم قـد صدِئت من طول ما مكثت فـى أغمادها، وكان العبيد لا يأبهون لتغلب حاكـم على حاكم، لأنهم وصلوا إلى حـال من الذل والبؤس بحيـث لا يسـتطيع حاكم جديـد أن يصيبهم بشـر منها، وكانت الطبقة الوسـطى سـاخطة حانقة، وقد بهظها مـا كانت تحمل من تكاليـف الدولة، ومـا كان يقع عليها من الغرم من غير أن تنال من الغنم شيئًا.

وإن شعبًا هوى إلى هذه الهوة، وتدهور فى هذا الدرك لا يستطيع فى حكم البديهة أن يؤلف من رجاله جيشا قويا مكافحا، لذلك دخل

القوط إسبانيا واستولوا عليها بدون عناء، وفتحت لهم المدن أبوابها عـن طواعية، وخضعت لهم الحضارة الرومانية العليلة دون أن تمد للدفـاع كفًا. وفى الحـق إن طريق القوط إلى الفتـح كانت قد مهدت بمن نزل قبلهم بإسـبانيا من متوحشى الألان والرندال والسوابى، فلـم يكلفهم الغـزو جهدًا، أو يحملهم عنتًا، فقـد علم الرومانيون من سـكان إسـبانيا حق العلم، ما يجر وراءه غزو المتوحشـين من نكبات وأوزار، فكم رأوا مدائنهم والنار تلتهمها التهامًا، وكم رأوا زوجاتهم وأولادهم يساقون إلى الذل والأسر، وكم رأوا قوادهم يقتلون صبرًا، رأوا عواقب هذه الحروب ولعناتها، وما يتصل بأذيالها من الطواعين والمجاعـات والقحط وشـيوع الفوضى الضاربة، وعلمتهم هذه الكوارث درسًا لم ينسوه، فألقوا القياد للقوط خاضعين.

وكان للقوط بإسـبانيا أكثر من مائتى سنة حينما وصل العرب فى أوائل القرن الثامن إلى شـواطئ المحيـط الأطلنطى بإفريقية، وعبروا بأبصارهم مضيق هرقل، فشاهدوا من بعد ولايات إسبانيا المشرقة.

وكان للقوط منذ أن فتحوا إسـبانيا متسـع من الوقت لإصلاح ما فسد من شـئونها، وبعث روح جديدة فى الشباب، وكان عليهم أن يستفيدوا من مدنية الرومان، فكثيرًا ما استفادت العناصر المتوحشة التى كملت فيها صفات الرجولة من اندماجها فى المدنيات القديمة الذابلة. وكان هناك أسـباب خاصة تدعو القوط إلى إصلاح أحوالهم: فإنهم لم يكونوا شـجعانًا أشداء فحسب، بل كانوا – فيما يزعمون

– نصارى مخلصين، والحقيقة أنهم عندما استولوا على إسبانيا لم تكن النصرانية فيها إلا صورة ورسمًا، لأن قسطنطين اكتفى بجعل النصرانية دينَ الإمبراطورية الرومانية، ولم يعن بتقوية دعائمها فى الممالك الغربية. وكان فى حكم الظن أن يكون هبوط دين جديد على أمة جاهلة كالقوط جديرًا بأن يثير حماستها، ويملأ صدورها بالأمل بعد أن رزحت تحت أثقال الوثنية طويلا، حتى لقد طمع قساوسة الكاثوليك فى أن يكون لهم ولكنائسهم فى العهد الجديد شأن مذكور، ولكن النتائج لم تؤيد المقدمات، فإن القوط جعلوا من أعمالهم الدينية ذرائع لغفران ما يجترحون من ذنوب وآثام، وأعدوا لكل إثم نوعًا من التوبة، واقترفوا الذنب ليتوبوا منه من جديد، دون أن يجدوا لذلك فى صدورهم حرجًا!

وجملة القول أنهم كانوا كأشراف الرومان الذين سبقوهم عادة وسوء خلق، ولم تدفعهم النصرانية إلى شىء من الخير والإصلاح، فكانت حال أحلاس الأرض اللازمين خدمتها، أسوأ مما كانت فى عهد الرومان، لأنهم لم يكتفوا بإلزامهم خدمة أرض بذاتها، أو سيد بعينه، بل حتموا عليهم ألا يتزوجوا إلا برضاء السيد، وأنهم إذا أصهروا من ضيعة مجاورة قسمت ذريتهم بين صاحبى الضيعتين. وحملت الطبقة الوسطى – كما كانت الحال فى حكم الرومان – عبء الضرائب، فجر ذلك إلى خراب هذه الطبقة وإفلاسها. وكانت الأراضى فى قبضة عدد قليل من الأغنياء، يقوم على خدمتها

وزراعتها عدد عديد من العبيد البائسين، الذين يعيشون بلا أمل فى الانتعاش من كبوتهم، أو حلم فى الخلاص من بؤسهم، وحسبك أن رجال الدين كانوا يخطبون ويشيدون بالأخوة المسيحية بعد أن أثروا وملكوا الضياع الواسعة، اتبعوا السياسة الموروثة، وعاملوا عبيدهم وخولهم بالعسف والشدة، كما كان يفعل أثرياء الرومان. ثم إن أغنياء القوط غرِقوا فى صنوف من النعيم أفقدتهم الحس، ونافسوا الوثنيين فى الفجور، ففلجوا عليهم حتى أدركهم ذلك السبات الذى أطاح بدولة الرومان.

يقول بعض المؤرخين - وهو يحاول تمحيص الأسباب التى أدت إلى تغلب المسلمين على المسيحيين -: «إن الملك ويتزا «غيطشة» علم إسبانيا كيف تقترف الآثام» ولكن إسبانيا كانت قد تعلمت ذلك على أحسن وجوه العلم قبل «غيطشة» بزمن بعيد، وربما لم يكن هذا الملك أسوأ من سابقيه الذين أغرقوا فى الشهوات، وترخصوا فى كل ما أصاب الدولة من الفساد والتدهور. ولما كانت آثام القوط المتوحشين قريبة الشبه جدًّا من مآثم الرومان الدائلين، لم تشعر المملكة عند انتقال الحكم من الرومان إليهم بشىء جديد.

هكذا كانت إسبانيا حينما اقترب المسلمون من حدودها. طبقة فاسدة مفسدة من الأغنياء، قسمت الأرض بينها ليزرعها العبيد

وأحلاس الأرض البائسون اليائسون، ثم طبقة من سكان المدن لم يبق لها الظلم والعسف رطبًا ولا يابسًا[1].

هكذا كانت إسبانيا حينما كان جنود الإسلام يقيمون على الجانب الآخر من بحر الزقاق الذى عرف فيما بعد بمضيق جبل طارق، وهم قوم بُسل أشداء، تلتهب نفوسهم حماسة لدينهم، وتتأجج شوقًا إلى ما فى أرض الكفار الخصيبة من غنائم وخيرات، وقد تدربوا على السلاح منذ نعومة أظفارهم، وعاشوا فى صحرائهم عيشة خشنة جافية. وإن موازنة بين هذين الفريقين لا تترك مجالا للشك فيمن سيكون له النصروالغلب، على أن الخيانة التى جاءت بعد ذلك فساعدت الفاتحين على اقتحام البلاد، أزالت كل أثر للشك فى انتصارهم.

خلع لذريق غيطشة من عرشه[2]، وبدأ حكمه بداءة حسنة، ولكنه خضع آخر الأمر لإغراء الثروة والقوة، وجمح به النهم فى الشهوات الدنيئة حتى نفرت منه القلوب، وأصبح كل ما حوله مستعدًا للاشتعال، لا ينتظر إلا شرارة صغيرة لينفجر ويذهب بمملكته.

---

(١) يزيد صاحب «أخبار مجموعة» وهو أقدم كتاب فى تاريخ الأندلس طبع بمجريط: أن البلاد أصيبت بالمجاعة والوباء قبل الفتح، فمات أكثر من نصف سكانها فى سنوات: ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ هـ.

(٢) عبارة صاحب «أخبار مجموعة»: هلك غيطشة وترك أولادًا لم يرضهم أهل الأندلس، فتراضوا على علج يقال له: لذريق شجاع هجوم، ليس من بيت الملك ولكنه من قوادهم.

وكانت العادة بين أمراء المملكة أن يرسلوا ببناتهم وأبنائهم إلى القصر لتهذيبهم وأخذهم بكل ما يثقف النفس ويغرس الخلق الكريم؛ فأرسل الكونت «يوليان» حاكم سبتة، ابنته فلورندا إلى قصرلذريق بطليطلة لتنال قسطًا من التربية بين وصائف الملكة. وكانت فلورندا غاية في الجمال فشغف لذريق بها، ودنس عفافها، ذاهلا عما يوجبه عليه الشرف من حمايتها كما يحمى إحدى بناته[1]، وزاد في بشاعة الجريمة، أن زوج يوليان كانت بنت غيطشة، فكان في فعلة لذريق تلطيخ للشرف الملكي بالعار. وقد كتبت الفتاة إلى أبيها حينما شعرت بجسامة الكارثة، ودعت غلامًا تثق به وأوصته أن يسرع بالكتاب، وأن يصل ليله بالنهار حتى يضعه في يد أبيها، ثم منته الأماني.

ولم يكن يوليان يحب لذريق، لأن صلته بالملك المعزول أو المقتول على الأرجح، صدّته عن الميل إلى الغاصب؛ ثم جاء العبث بشرف ابنته، فزاد نار حقده اشتعالا، وأغراه بالكيد والانتقام. وقد استطاع أول الأمر أن يقف في وجه غارات العرب، ولكنه عزم الآن على ألا يدفع عن مملكة أثيم ثلب عرض ابنته، وصمم على أن يترك العرب يملكون إسبانيا إذا أرادوا. ثم زاد فقرر في قرارة نفسه أن يرشدهم إلى الطريق، فأسرع - وحب الانتقام يملأ صدره - إلى

---

(١) يقول المؤلف: إنه ينقل هذه الرواية دون أن يتعرض لتأييد صدقها، وإذا كان ما يختص بفلورندا منها خياليًا، فإن ما يختص بيوليان حق لا شك فيه.

لذريق – بعد أن أسكت غضبه وأخفى ما فى نفسه – فأحس الملك بشىء من الندم، ووثق فى نفسه من أن فلورندا كتمت سره وسرها، وأخذ يغمر يوليان بصنوف من الإجلال والتكريم، ويستشيره فى كل ما يتصل بحماية المملكة، ويصيخ إلى ما يزوّق له من الخديعة والختل، حتى إنه أرسل أكرم خيوله وخير عتاده إلى الجنوب، لتكون تحت إمرة يوليان إذا هجم الفاتحون.

وغادر الكونت طليطلة ومعه ابنته، محفوفًا بعطف الملك ورضاه، وطلب لذريق منه عند افتراقهما أن يرسل إليه نوعًا خاصًّا من البُزاة المعلمة، فأجاب يوليان: بأنه سيرسل إليه بزاة لا عهد له بها؛ وبهذه الإشارة الخفية إلى قدوم العرب، عاد أدراجه إلى سبتة.

وما كاد يصل إليها حتى زار موسى بن نصير، الوالى من قبل الخليفة على شمال إفريقية، الذى طالما اشتبكت سيوفه بسيوفه فى حروب مشتعلة الأوار، فأخبره أن الحرب بينهما قد وضعت أوزارها، وأنهما منذ اليوم صديقان حميمان، ثم أخذ يملأ أذنى القائد العربى بأحسن القصص عما فى إسبانيا من الجمال والثروة، ويحكى عن أنهارها ومروجها، وأعنابها، وزيتونها، وعظمة مدنها وقصورها، وما فيها للقوط من كنوز، ثم قال: إنها أرض تموج باللبن والشهد، وليس على موسى إلا أن يخطو فينالها بقبضته، وأخذ يوليان على نفسه أن يرشده إلى الطريق، ويعدّ له السفن. وكان القائد العربى داهية شديد الحذر، فخشى أن تكون هذه الدعوة

خديعة واستهواء إلى الوقوع فى شرك أو كمين، لذلك أرسل إلى الخليفة بدمشق رسلا ليرى رأيه فى الأمر، واكتفى فيما بين ذلك سنة ٧٠١ م/ ٩١ هـ بإرسال خمسمائة رجل بقيادة (طريف) أبحروا فى أربع سفن ليوليان للإغارة على شاطئ الأندلس، ولم يرضَ موسى أن يعرض من رجاله للخطر أكثر من هذا العدد، لأن العرب لم يكونوا قد اعتادوا بعد الإبحار فى بحر الروم.

عاد طريف فى شهر يوليه بعد أن نجح فى الغرض الذى أرسل من أجله، فقد أرسى سفنه فى المكان الذى لا يزال يسمى باسمه، ونزل الجزيرة الخضراء وانتهبها، ورأى بعينه ما كفى لاقتناعه بصدق ما قاله الكونت يوليان من فقدان وسائل الدفاع بإسبانيا، وبأن إخلاصه للفاتحين لا يقبل الشك. ولكن موسى على الرغم من هذا لم تمل نفسه إلى المخاطرة فى سبيل فتح جديد، وجاء كتاب من الخليفة بدمشق يأمره بألا يقذف بجيش المسلمين فى أخطار مجهولة العاقبة، وعهد إليه أن يكتفى بإرسال فرق قليلة من آن لآن للإغارة المفاجئة.

ولكنه بعد أن ملأه نجاح طريف ثقة بالنصر والتغلب، عزم على أن يوسع نطاق غزوه.

فحين علم فى سنة ٧١١ م/ ٩٢ هـ أن لذريق مقيم بشمال مملكته لقمع ثورة البشكنس، أرسل أحد قواده، وهو طارق البربرى، ومعه سبعة آلاف رجل جلهم من البربر للإغارة على الأندلس، فنال من

هذه الإغارة فوق ما كان يتوقع، فإنه أرسى سفنه عند صخرة الأسد التى حملت اسمه منـذ ذلك الحين، فدعيت: جبل طارق. وبعد أن ملـك «كارتية»، توغل فى داخل البلاد، ولم يسـر بعيدًا حتى رأى جيـوش القوط بقيادة لذريق تقترب لنزاله؛ فالتقى الجيشـان على شاطئ نهير سماه المسلمون: وادى بكّة، بالقرب من نهر وادى لكة الذى يصب فى المضيق عند رأس الأغر[1].

وتقـص علينا الأسـاطير: أن الملك لذريق قبل هـذه الموقعة، كان جالسًـا على سـرير ملكه بمدينة طليطلة، فدخـل عليه رجلان جلل الشيب رأسيهما، وهما فى ثياب بيض من نسج قديم، وكان حزاماهما مزينـين بصور مواقع النجوم وما لها من شـأن فـى تصاريف القدر، وقـد علق بهما كثـير من المفاتيح، فلما مثلا بين يـدى الملك قالا له: اعلم أيهـا الملك: أن هرقل منذ الزمن القديم، وحين نصب صنمه عند مضيق البحر، أنشـأ حصنًا قويًّا بالقرب من طليطلة القديمة، وأخفى فيه طلسـمًا جعل عليـه بابًا من الحديد ثقيلا، لـه أقفال من الصلب توكيدًا لحفظه؛ ثم إنه أمر أن يقوم كل ملك جديد؛ بإضافة قفل جديد لهذا الباب، وأنذر بالويل والثبور كل من يهم بكشـف هذا الطلسـم. وقد قمنا وقام أسـلافنا بحراسـة باب الحصن منذ أيام هرقل إلى هذه السـاعة، وعلمنا أن بعض الملوك، حاول كشـف هذا الطلسـم فكانت

(١) فى«أخبار مجموعة»: أن التقاء الجيشين كان بمكان يقال له البحيرة.

عاقبة أمرهم الموت أو الجنون، ولم يصل واحد منهم إلى أبعد من عتبة بابـه، وقد جئنـا الآن أيها الملك، لنرجوك أن تضـع قفلك على باب الحصن كما فعل جميع الملوك قبلك. ثم انصرف الشيخان.

حينما فكر لذريق فيما قالاه، ثارت فى نفسه الرغبة فى دخول هذا الحصن المسحور، على الرغم من تحذير بطارقته ووزرائه الذين قالوا له: إن كنت تظن أن به مالا فقدره، ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولا تحدث علينا بفتحه حادثًا لا نعرف عاقبته، وقد علمت أن قيصرًا الأكبر على جرأته لم يحاول دخوله...

ولـن يفتـح الحصـن إلا لمن قضى الله فى ملكه بالزوال
ممـالـكـه زال سلطـانهـا بنشر الفساد وكيد الرجال
فنالت مـن الله شـر انتقـام وآب بنـوهـا بشـر المـآل

ولكن الملك أصر وصمم على الرغم من هذه النصيحة، فركب يومًا مع فرسـانه إلى الحصـن، وكان فوق صخرة عاليـة تحيط به مهاو سـحيقة، وكانت حيطانه من المرمر الذى إذا واجهته الشـمس كاد شعاعه يذهب بالأبصار. وكان مدخله فى طريق منحوت فى الصخر، وقـد أغلق عليه باب عظيم من الحديد، غطـى بالأقفال الصدئة من عهد هرقل إلى أيام غيطشة.

ووقف الحارسـان إلى جانبى الباب، وحاول فرسان الملك وبعض الحـراس فتحه، فاسـتطاعوا بعد لأى فك أغلاقـه قبيل الغروب،

ودخل الملك وحاشيته من الباب، إلى بهو فى نهايته باب آخر، وقف أمامه تمثال من البرنز ضخم هائل المنظر، بيده رمح عظيم أخذ يحركه ويضرب به ما حوله من الأرض.

ولما رأى لذريق هذا التمثال، هاله منظره، وأخذه البهر، وتملكته الدهشة، ولكنه لما قرأ ما كتب على صدره وهو: «إنى أقوم بواجبى» استرد شجاعته، وأمر التمثال أن يفسح له الطريق، زاعمًا أنه لم يأتِ لاستباحة حرمة المكان، وإنما جاء ليعرف سر ما فيه، فهدأت عندئذ ثائرة التمثال ورفع رمحه، فمر الملك ومرت حاشيته من تحته إلى حجرة ثانية، فوجدوا جدرانها مغطاة بكريم الأحجار، ورأوا فى وسطها مائدة عظيمة من ذهب وفضة، مكللة بالجواهر، وعليها تابوت من الفولاذ، به قفل علق به مفتاحه، وقد كتب عليه: «فى هذا التابوت طلسم الحصن، ولن تفتحه إلا يد ملك، ولكن ليحذر هذا الملك، فإن أشياء عجيبة ستصوّر له ما يحصل له قبل موته».

وحين فتح الملك التابوت لم يجد به سوى رق به صور فرسان عابسى الوجوه مسلحين بالقسى والخناجر، وقد كتب فوق هذه الصور: «انظر أيها الطائش الأرعن إلى هؤلاء، فإنهم سيثلون عرشك ويخضعون مملكتك». وبينما كان الملك وأصحابه يحدقون فى الصور،

إذ سمعـوا زمازم الحرب ولجبهـا، ورأوا أن الصور طفقت تتحرك كأنها فى غمام، حتى أخذت هيئة حرب فى ميدان[1].

رأى لـذريق فى هول وحزن بهـذا المنظر السحرى حربا
عواقبها تراها العين جهرًا وإن كـانت من القدر المخبا

ثم أبصروا ميدانًا عظيما يتفانى فيه المسـيحيون والمسـلمون فى موقعة طاحنة، وسمعوا أصوات جرى الخيل ووقع حوافرها، وزعق الأبـواق والصنوج، وما يصم الآذان من ضرب آلاف من الطبول، بين بريق السـيوف والقضب وحفيف السـهام وصليل الرماح؛ ورأوا أن النصارى يتضاءلـون أمام أعدائهم الذين تدفقـوا عليهم كما يتدفق السيل، فتبدد شملهم، وسقط إلى الأرض بيرق الصليب، وديس علم إسـبانيا تحت الأقدام، وامتلأ الجو بصيحـات الانتصار يخالطها صراخ الغضب وأنين المحتضرين.

ورأى الملك لذريق بين هذه الفرق الفارة من الميدان فارسًا متوجًا. كان ظهره إليه، ولحظ أن سـلاح هذا الفارس وعدته، تشبه سلاحه وعدته، وأنه كان يركب جوادًا أشهب، يشبه جواده «أوريليا».

ثم رأى أن الفارس بعد قليل سـقط عن جـواده فى هرج الحرب ومرجهـا فلم يعد يُـرَى، وأن أوريليا أخذ يعدو فـى الميدان بغير راكب.

---

(١) لم أقـرأ خرافة تحرك التمثال وسماع أصوات الحرب ولجبها وتحرك الصور المرسومة فى الرق فيما كتبه العرب عن هذه الأسطورة.

وحينما خرج الملك وحاشيته من الحصن دهشين خائفين، اختفى التمثال من الوجود، وسقط الشيخان الحارسان ميتين عند مدخل الحصن، وكان من إرهاص الطبيعة الغاضبة أن التهمت النار الحصن، فتأجج كل حجر فيه وآض رمادًا تذروه الرياح. ويقول القصاصون: إنه كلما سقط رماد من هذه الأحجار فى مكان، وجد بجانبه نقطة من الدم المسفوك.

أولع مؤرخو العصور الوسطى من النصارى والعرب بالإفاضة فى هذه الحادثة وإمدادها بكثير من صور الخيال وضروب الإرهاص كما قيل:

كم من رُؤى وأساطير مزوقة بها وعيد وإرهاص وإنذار
فيها تلاقى خيالُ العرب مازجه ما خيلته لأهل القوط أشعار

وكم قرأنا أن كلا الفريقين قبيل الموقعة كان ينشرح صدره أو ينقبض بالفأل والطيرة، وزعموا أن النبى نفسه ظهر لطارق فى المعركة وحثه على الإقدام، وأمره أن يضرب ويغلب، إلى غير ذلك من أمثال هذه الروايات. وكيفما كانت رؤى الجيشين وأحلام رجالهما، فإن نتيجة القتال حين وقف الجيشان بالقرب من وادى لكة، كان لا يشوبها شك ... نعم إن طارقًا أمد بخمسة آلاف مقاتل من البربر، فبلغ جيشه الصغير اثنى عشر ألفًا، حينما كان جيش لذريق يبلغ ستة أمثاله فى العدد، لكن الفاتحين كانوا شجعانًا مغاوير أشداء، مرنوا على الحروب، وكان قائدهم بطلا باسلا،

بينما كان الإسبان خليطا من العبيد المستضعفين فى الأرض، وكان بين قوادهم بعض الخونة من الأشراف، فإن أقرباء غيطشة – وإن أطاعوا لذريق فى ظاهر الأمر وحضروا المعركة – كانوا عازمين على الانضمام إلى الأعداء عندما ينكشف لهم وجه القتال، ولم يخطر لهم ببال أن فى فعلهم هذا خيانةً لإسبانيا، فقد ظنوا واهمين أن الغزاة لم يقصدوا إلا إلى النهب والغنيمة، وأنهم عند انتهاء الغارة وحصولهم على الأسلاب يذهبون توًّا إلى إفريقية، فتعود سلالة غيطشة إلى عرشها[1] القديم المغصوب؛ وبهذا الظن الخاطئ عاونوا من حيث لا يشعرون على وضع أجمل ولايات إسبانيا نحو ثمانية قرون تحت حكم العرب.

وقد سقطت قلوب المسلمين بين جنوبهم ذعرًا، حينما رأوا الجيش اللهام، الذى أعده لذريق لنزالهم، وحينما رأوا الملك فى درعه الفاخرة وفوقه المظلة الملكية، ولكن طارقًا صاح فى رجاله: «أيها الناس: العدو أمامكم والبحر وراءكم، وليس لكم والله إلا الجلد والصبر»؛ فاستنجد المسلمون بشجاعتهم وصاحوا: «إنا وراءك يا طارق» ثم هجموا خلف قائدهم يقذفون بأنفسهم فى وطيس الحرب وأتونها. واستمرت المعركة أسبوعًا، أظهر فيه الفريقان كثيرًا من

(١) فى «أخبار مجموعة»: فقال بعضهم لبعض: هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من سفالنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم باستيطان بلدنا، إنما يريدون أن يملئوا أيديهم ثم يخرجوا عنا، فانهزموا بنا إذا لقينا القوم. وكان لذريق قد ولى شيشبرت ميمنته وأية ميسرته، وهما ابنا الملك غيطشة.

ضروب الشجاعة والإقدام، وكان لذريق يستحث قومه مرة بعد أخرى، ولكن فرار أتباع غيطشة رجح كفة الميزان، فصار الميدان صورة محزنة للدمار والهزيمة.

ومزق جيش لذريق وخارت ... بمن فيه العزائم والقلوب
وحين رأى الهزيمة فر يعدو ... وحيدًا مستكينًا لا يؤوب
عليه من غبار الحرب ثوب ... ومن لون الدماء به لهيب
وتحمل كفه سيفًا خصيبًا ... كمنشار أفلته الحروب
فلأمة صدره فيها شقوق ... وخُوذة رأسه فيها ثقوب
أطل بقمة فرأى دمارًا ... له كادت حشاشته تذوب
وأعلامًا ممزقة تبدت ... وكلٌّ بالدم القانى خضيب
وجال بسمعه للعرب صوت ... بنصر الله ردده السهوب
رأى قواده فرّوا وأبقوا ... جريحًا أو قتيلا لا يجيب
وأنى عينه لمحت مكانًا ... بدا للعين فيه دم صبيب
فقال وقد بكى: قد كنت ملكًا ... وماذا ينفع الآن النحيب؟
ونمت الأمس فوق فراش عز ... وفرشى اليوم تجفوه الجنوب
جثا الخدام أمس أمام عرشى ... وليس اليوم لى منهم عريب
فيوم ولادتى يوم عبوس ... ويوم ولايتى يوم عصيب
فما أشقى نهارى حين أرنو ... لشمس الأفق يحجبها المغيب!
فعجل أيها الموت المرجى ... فما لى اليوم فى الدنيا حبيب

هكذا تقول الأنشودة الإسبانية، ولكن نهاية لذريق بقيت سرًّا خفيًّا إلى اليوم، فقد وُجد فرسه وخفاه عند شاطئ النهر بعد يوم

مــن المعركة ولم يظهــر له أثر. ومن المحقق أنه غــرق، وأن النهر حمــل جثته إلى المحيط. ولكن الإســبان يأبون أن يصدقوا هذا، فقد ألبســوا الملك الراحل حللا قدسية خفية الأسرار، لم يخلعوها عليه فى حياته، وجعلوا منه معينًا فياضًا لكثير من القصص والروايات، وخلعوا عليه صفات المنقذ المخلص، كما فعل الإنجليز بالملك آرثر؛ فاعتقدوا أنه ســيعود مرة أخرى من مقره فى بعض جزائر المحيط بريئًا من جراحه ليقود المسيحيين لقتال الملحدين.

وجــاء فى أســاطيرهم أنه قضى بقيــة حياته فــى أعمال الخير والإنابة، وأن ثعابين أخذت تبتلعه شيئًا فشيئًا، عقابًا لما كان يقترف مــن إثم، حتى محيت ذنوبه «فإن عقاب البدن ينقذ الروح من الآلام» ثم إنه حمل إلى الجزيرة الهادئة المطمئنة، ولا يزال رجاله منذ ذلك الحين ينتظرون أوبته إليهم، كما يؤوب الظافر المنتصر.